

المنطق والعقلانية في الشعر العباسي

Logic and rationality in Abbasid poetry

د(ة) كريمة حجازي*

تاريخ الإرسال: 2023/12/31	تاريخ القبول: 2025/05/28	تاريخ النشر: 2025/06/20
---------------------------	--------------------------	-------------------------

الملخص:

إنَّ الدارس للتاريخ العباسي، ليجد بين ثنايا تمفصلاته، ذلك الرابط الثقافي الوافد من مجموع العوالم الغربية المؤثرة في عقلية الفرد العباسي آنذاك.

حيث انقلبت موازين الحياة، فتحوّلت على إثرها الحياة الاجتماعية من البادية إلى التحضر والعمران، وفي سياق هذا تغيرت صورة الأدب معه، فتصاعدت وتيرة أغراض تماشت مع هذا الانقلاب، في حين ظهرت أغراض أخرى كانت ثمرة هذا الانصهار والتوجه الفني الحديث، وعلى رأسها الحكمة والمنطق.

ومن خلال هذه الورقة البحثية، سنحاول التطرق إلى علاقة الشعر العربي بالفلسفة من منظور شعر المتنبي وغيره من شعراء العصر العباسي الذين ظهر على إبداعاتهم هذا التأثير الذي لا يزال إلى حدّ اليوم محطّ دراسة تتكشف معها حيثيات هذه العلاقة.

الكلمات المفتاحية: المنطق، الحكمة، الشعر، الفلسفة، الرابط الثقافي.

Abstract:

The scholar of Abbasid history finds his interlinkages, the cultural link that comes from the sum of Western worlds influencing the mindset of the Abbasid individual at the time.

As life's scales flipped, social life shifted from seeming to urbanization and urbanization. In the context of this, the image of literature changed with it. The frequency of things in line with this coup escalated, while other

purposes emerged that were the fruit of this fusion and modern artistic orientation, notably wisdom and logic.

Through this paper, we will try to address the relationship of Arab poetry to philosophy from the perspective of the mindful poetry and other Abbasid-era poets whose creativity has shown this influence, which today remains the focus of a study that reveals the raison d'être of this relationship

Key words: logic, wisdom, poetry, philosophy, Cultural Link.

المؤلف المراسل: كريمة حجازي، karima.hedjazi@univ-khenchela.dz

*** **

1. مقدمة:

اقترن الشعر بالفلسفة والأسطورة في التراث الأدبي الغربي منذ الحضارة الإغريقية، بينما ظل الشعر العربي بعيدا عن ذلك، ولما أثرت الفلسفة الإغريقية في الحضارة العربية اتجه بعض الشعراء إلى استعمال المنطق والفلسفة في نظمهم، وأخضعوا تجربتهم الشعرية إلى ذلك، فوسموا بالحكماء والفلاسفة أكثر مما وسموا بالشعراء، نجد أبا الطيب المتنبّي حكيم الدهر، وأبا العلاء المعري شاعر الفلاسفة وفيلسوف الشعراء، وأبا تمام الذي امتاز شعره بالعمق في فكره ومعانيه وابتعاده عن ضحالة النظرة.

وتداخلت الثقافات فيما بينها، ليكون العصر العباسي شاهدا على نتائجها، المتمثل في مظاهر التقدم والازدهار في شتى الميادين، وعلى رأسها ما كان في الفكر والأدب. وعندما نرجع إلى تفاصيل هذه الثقافات، نجد أن اليونانية منها قد جسدت الحكمة والتأمل في مظاهر الحياة، ما جعل العربي في ذلك الحين يمتلك البصر والبصيرة، لخوض شؤونها والتوغل في تفاصيلها بسلامة وعقلانية تُوافق طبيعة المنطق الراجح والفكر الرزين.

لقد اقتبس العرب الفلسفة اليونانية، في إطار الحركة العقلية، التي شهدتها العصر العباسي وذلك عن طريق الترجمة لمختلف الكتب والمضامين المندرجة في إطار هذه الفلسفات المغيرة لطبيعة الفكر العربي، والناقلة منه، إلى مستوى التحضر والمدنية الرفيعة الشأن والعالية القوامة.

وفي إطار الحديث عن الأدب العربي وهذه الفلسفة، نجد أن حلقة الوصل تمثلت في المنطق والحكمة الأرسطية والأفلاطونية.

2. في مفهوم الحكمة والمنطق:

قيل "كل كلام وافق الحق فهو حكمة"، فالحكمة هي العلم والحلم والخبرة، وهي خلاصة تجربة حياتية، ومعاناة اجتماعية، ينطق بها صاحبها بكلام وجيز دقيق، ليعبر فيه عن مبدأ أو رأي أو حقيقة.

جاء في لسان العرب: «الحكمة هي: عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم»¹

وجاء في المنجد: «الحكمة جمع الحكم، الكلام الموافق الحق، الفلسفة، صواب الأمر وسداده، العدل، العلم، الحلم»².

فالحكمة إذا هي خلاصة آراء العقل الراجح، والفكر المتزن الصائب البحث، الكاشف الغموض، المحلل والمدبر لخلاصة السبل الموصلة للمعرفة الحق، وماله علاقة بالمنطق وعلوم العقل.

وارتبطت الحكمة بالأدب ارتباطاً وثيقاً في تلك الخلاصات والنماذج الفنية، المبنية على الرأي المنطقي القائم على الحجة والخلاصة الحياتية فهي: «وليدة العقل الثاقب تصقلها التجربة ويلورها العمر المديد، فإن أتى صاحبها فصاحة لسان وحضور منطق ودمغة حجة، جاء منها بالبين المعجز، والجامع الموجز»³

إذا فهي من العلوم العقلية، كما قال ابن خلدون: «وأما العلوم العقلية، التي هي طبيعة للإنسان من حيث أنه ذو فكر فهي غير مختصة بملة، بل يوجد النظر فيها لأهل

الملل كلهم، ويستوون في مداركها ومباحثها، وهي موجودة في النوع الإنساني منذ كان عمر الخليقة»⁴.

فابن خلدون يعترف كباقي علماء الإسلام وحتى اليونان، أن صناعة المنطق أو العلوم العقلية ليست من اختصاص قوم على قوم.

وظهرت بدايات الفلسفة عند العرب عندما ظهر علم الكلام أو علم الجدل، كما يسمونه، وتطورت علوم الفلسفة بمعناها المعروف عن طريق ترجمة كتب الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية بفضل العلماء المسلمين، مثل ابن سينا، والفارابي، وقد ظهرت الفلسفة بداية في الحضارة اليونانية، وكان يقصد بها الحكمة، والفيلسوف عند اليونان هو محب الحكمة، وهو الذي يُعلم الحكمة للناس، وعلى هذا الأساس، فالحكمة هي العقل مع العلم، والمعرفة مع استعمال المنهج القويم والمنطق السليم، مع أشياء كثيرة أخرى، ذات قيمة حقيقية يمكن أن تفيد البشرية، تؤتي للبعض، فيعلموها للبعض الآخر، فيمكن أن نقول: أنها جملة العلوم والمعارف التي يمكن أن يبلغ بها الإنسان إلى مراتب الحكمة.

أما المنطق فهو جملة القوانين الثابتة التي تحمي الذهن من الخطأ والزلل، ويوجهه إلى صواب الرأي ويُبعده عن الخطأ في العقيدة وغيره، فابن خلدون حدد الوظيفة الحقيقية للمنطق الذي يعتبره أحد العلوم العقلية الأربعة يقول: "فهو علم يعصم الذهن عن الخطأ في اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة المعلومة، وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمس الناظر في الموجودات وعوارضها ليقف على تحقيق الحق في الكائنات نفياً وثبوتاً بمنتهى فكره"⁵.

فالهدف منه نقصد المنطق؛ هو وضع القوانين التي تتوافق مع العقل حتى يستطيع التمييز بين الأمور الصحيحة والأمور الخاطئة؛ إنَّه البحث عن العلم الصحيح والانتقال من العلوم المجهولة إلى العلوم المعروفة، مما يساعد على تطور العقل وتنمية القدرة على التصور والإبداع.

ومن خلال هذا وذاك نخلص إلى أن العلاقة بين المنطق والحكمة هي علاقة تكامل، ذلك أن الأول هو سبيل للثاني، فالمنطق يعتبر المنطلق والأساس السليم للتعبير

عن كل ما يجول في النفس من مكنونات وبوادر تعني بشؤون الحياة بما يُعرف بمفهوم الحكمة.

والتعبير عن الحياة عند العرب تجسّدت تفاصيله في تلكم القوالب الشعرية الخالصة، التي عكست الصورة المثلى، وجسّدت القلب النابض لفكر الفرد العربي عامة والعباسي بصفة خاصة: «وعلى أي حال فإن الثقافة اليونانية قد صبغت عقلية الأدباء والشعراء بآثارها العميقة في التفكير والخيال، وطرافة التقسيم»⁶.

3. الحركة العقلية في العصر العباسي:

هذه الفترة تسمى الحقبة الذهبية عند العرب كيف لا وهي التي أنجبت ثلّة من الشعراء الفلاسفة على الصعيد الأدبي أجهروا بأولوية العقل أحقية المنطق في التحليل والتعليل.

إنّ الحركة العقلية في العصر العباسي تمثلت في خلاصة النشاط الفكري، المتراوح ما بين الثقافات الدخيلة وتمازجها بالثقافة العربية الأصل، ما ولّد لنا فكرا جديدا، رسم صورة العهد الحضاري الحديث، المجسّد في قالب الفكر العباسي.

لقد ساهمت ثلاث حضارات في صياغة الثقافة العباسية، فكان العقل اليوناني هو أول عقل ساهم فيها، وكان ميالا إلى فلسفة التحليل والتعليل، وكذلك كان يميل إلى المعنويات أكثر من ميله إلى الماديات.

لذلك كان يذهب إلى التعمق والعلم، وقد ركز شوقي ضيف على أثر الثقافة اليونانية واعتبرها أهم الثقافات التي أثرت في الفكر العباسي؛ يقول: «وإذ تركنا الثقافتين الهندية والفارسية إلى الثقافة اليونانية، وجدنا علاقتها بالشعر والشعراء تفوق علاقتي تلك الثقافتين، وحقا أنهم لم يعرفوا شيئا عن الشعر اليوناني، إذ اقتصر معرفتهم بالثقافة اليونانية على الفلسفة والمنطق، ... فقد دعم المنطق تفكيرهم ووسعت الفلسفة دوائره، فانصبغ عقل الشعراء بأصباغ من العمق والدقّة والتحليل»⁷.

إن حركة الترجمة كانت السبيل الأنجع لالتهام الكم الهائل من خلاصة التجارب الثقافية الغربية، وتحويرها بما يناسب طبيعة هذا النظام الجديد المعروف بفلسفة الحياة.

لقد تأثرت الدولة العباسية بمفهوم المنطقية والفلسفة ويكمن هذا التأثير القوي في خلاصة التجارب الفنية الموسومة في فكر أدباء هذا العصر؛ والذين اعتمدوا على لبنة الحكمة والمنطق الفلسفي.

4. الحكمة والفلسفة في الشعر العباسي:

1.4. أبو نواس (145هـ - 198هـ):

أبو نواس مثل من سبق ذكره تأثر بالمنطق والفلسفة، يقول في مطلع قصيدته (دع عنك لومي):

دَعْ عَنْكَ لُومِي فَإِنَّ اللَّوْمَ إِغْرَاءٌ وَذَاوَنِي بِالتِّي كَانَتْ هِيَ الدَّاءُ⁸

فنحن حينما نتمعن البيت الذي نظمه أبو نواس، نفهم المعنى، لكننا لا نفهم القصد ولا نتمكن من أن نتمثله وأن نستسيغه، إلا بعد أن نُمعن في التفكير والتأويل، فكيف يكون اللوم، وكيف يتداوى الإنسان بدائه؟ هذا السؤال لا يتيسر الجواب عنه، وإنما يقتضي بعض التأمل واستطلاع الأسباب البعيدة من وراء النتائج الظاهرة، وهذا ما لم نكن نشهده في الشعر الخمرى القديم.

والواقع أن امتناع الشيء الذي يتوق المرء إليه يجعله أشد حرصا على الحظوة به، كما أن الشوق يجمله ويبالغ بقيمته، فتشتد الرغبة في الحصول عليه والتمتع به، وبذلك نرى أن أبا نواس يحول المعنى الشائع القديم إذ يجد له مبررا نفسيا، إذ يراها مُنشية مُنسية لهم، فالقصيدة تبدأ برفض اللوم رفضا تاما صارما، يتبعه تبرير فلسفي بعدم جدوى اللوم، ثم يعتبر الداء دواء له، فقد استطاع أبو نواس من خلال طاقاته الفنية والابداعية والروحية، أن يجعل لخمرته أبعادا وأن يرسم لها آفاقا تفترق عن الخمرة في شعر سابقه، فهي عنده تعبر عن حاجات نفسية وفكرية بل سياسية واجتماعية وأخلاقية وعرفانية وفلسفية، حيث كانت وسيلة الى إبداع عوالم شعرية،

وأداة لخلق اتجاه في متميز وجديد، ولعل في ذلك مظهر من مظاهر تأثير الفلسفة على الأدب.

2.4. أبو العتاهية (113-212):

ومن المعروف أن أفلاطون كان يقول ببقاء النفس، وكونها جوهرًا روحياً⁹، ونجد لفظ جوهر، في قول أبي العتاهية:

لِكُلِّ شَيْءٍ مَعْدِنٌ وَجَوْهَرٌ وَأَوْسَطُ وَأَصْغَرُ وَأَكْبَرُ
وَكُلُّ شَيْءٍ لَاحِقٌ بِجَوْهَرِهِ أَصْغَرُهُ مَتَّصِلٌ بِأكْبَرِهِ¹⁰

استخدام مثل هذه المصطلحات أدى إلى تغير صورة الأدب مع هذه التحولات الأيديولوجية (الفكرية الحضارية) الكبرى، والتي أدت إلى انقلاب موازين حياة العروبة ناقلة صورتها الاجتماعية من مشاهد البادية إلى بنية التحضر والعمران.

3.4. أبو تمام (188-231):

أبو تمام ومن خلال اطلاعه على الفلسفة زواج بينها وبين الشعر: «فأساس العمل الفني عنده، هو هذه المزاجية بين العقل والشعور، أو بين الفكرة والعاطفة وهو في سبيل هذه المزاجية لم يكن يبالي بأن يحمل اللغة أكثر مما تطيق، كما لم يكن يبالي بأن تصل معانيه إلى شيء من الغموض، جعلها تصعب في فهمها على أولئك الذين لم يصلوا بثقافتهم إلى المستوى الذي وصل إليه»¹¹.

والقصد أنه وظّف الفلسفة والمنطق في شعره، فأدخل قضية الديالكتيك "الجدلية" مثلاً، فشوقي ضيف يرى أن أبا تمام: «لا يقف بفسنه عند هذه الألوان القديمة من التصنيع التي يبتهج لها الحس، بل نراه ينفذ إلى ألوان جديدة يبتهج بها العقل وهي "ألوان قاتمة" كانت تتسرب إليه من الفلسفة والثقافة العميقة... فقد استطاع أن يستوعب الفلسفة والثقافة وأن يحولهما إلى فن وشعر، إذ تتعلق بهما ألوان التصنيع السابقة، أو بعبارة أدق يتعلقان هما بتلك الألوان، فإذا كل لون منها يعبر عن فكر عميق، فالطباق والجناس والتصوير والمشاكلة، كل ذلك يزدوج بالفلسفة وألوان الثقافة القاتمة فيجلله الغموض في كثير من جوانبه»¹² يقول:

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءٍ مِنَ الْكُتُبِ فِي حَدِّهِ الْحُدَّ بَيْنَ الْجِدِّ وَاللَّعِبِ.

بِيضُ الصَّفَائِحِ لَأَسْوَدَ الصَّحَائِفِ فِي مَتَوْنَيْنِ جَلَاءَ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ

وَالْعِلْمُ فِي شُهْبِ الْأَرْمَاحِ لَامِعَةٌ بَيْنَ الْخَمْسِينَ لَا فِي السَّبْعَةِ الشُّهُبِ¹³

فالسيف أصدق من كتب المنجمين، لأنه الفاصل بين الحق والباطل إذا كان سبيله الجهاد لذات الله عز وجل، فالشك والريبة مصطلحان يخالفان الحقيقة واليقين، وهذا يدل على اعتماد الفكر المنطقي، في الاحتكام إلى الرأي السديد. وكان أول من أكثر الحكم والأمثال، والاستدلال بالأدلة العقلية فأضاف الكثير من الثقافة والفلسفة في الشعر، يقول:

مَطَرٌ يَذُوبُ الصَّحْوُ مِنْهُ وَبَعْدَهُ صَحْوٌ يَكَادُ مِنَ الْغَضَارَةِ يَقْطُرُ

غَيْثَانُ: فَالْأَنْوَاءُ غَيْثٌ ظَاهِرٌ لَكَ وَجْهُهُ وَالصَّحْوُ غَيْثٌ مُضْمَرٌ¹⁴

فهذا الوصف وصف تعليلي فلسفي، يسير من الظواهر إلى العلل، ويُعنى بالتأمل والاستنتاج، وهذان البيتان يمثلان واقع الثقافة والتجربة الشعرية في عصر الشاعر، يقول:

يَا صَاحِبِي تَقْصِيَا نَظْرِيكُمَا تَرِيَا وَجُوهَ الْأَرْضِ كَيْفَ تَصَوَّرُ

تَرِيَا نَهَارًا مَشْمَسًا قَدْ شَابَهُ زَهْرُ الرَّبِيِّ، فَكَأَنَّمَا هُوَ مُقْمَرٌ

دُنْيَا مَعَاشٍ لِلْوَرَى، حَتَّى إِذَا حَلَّ الرَّبِيعُ، فَإِنَّمَا هِيَ مَنْظَرٌ¹⁵

يقرر مصير الإنسانية الذي استقر في ذهنه بعد تأمل الحياة، وتقرير قواميسها، فقد نظر إلى حياة البشر، فرآهم يدأبون ويكدون ليكسبوا عيشتهم، وخُص من ذلك إلى أن نعيم الحياة بالنسبة للإنسان هو المعيشة التي يحيها، فهو هنا اعتمد على الصور العقلية المركبة التي نسجها من انفعالاته وخياله المجنح، فإذا الصبح مغرب والنهار المشمس ليل مقمر، بل إن الصحو يمطر والمطر يصحو...

4.4. ابن الرومي (222هـ-283هـ):

وابن الرومي يصف قصيدة له فيقول:

كم نظرةٍ فيها تَقَصَّيْتُها كم وقفةٍ فيها توقفتُها
ولم أدع في كلِّ ما زانها فلسفةً إلا تفلسفتُها¹⁶

والفلسفة عند الشاعر هنا بمعنى تقليب وجوه المعاني وتدقيقها واختيار ألفاظها، بحيث تبدو في أجمل وجه، وهو استعمال عام لمعنى «فلسفة».

وقال:

لما توذّن الدنيا به من صُروفِها يكون بُكاءُ الطفل ساعة يولّدُ
وإلا فما يُبكيه منها وإنّها لأفسحَ ممّا كان فيه وأزغدُ
إذا أبصرَ الدنيا استهلَّ كأنه بما سوف يلقى من أذاها يهدّدُ
وللنفسِ أحوالٌ تظلُّ كأنّها تشاهد فيها كلّ غيبٍ سيُشهِدُ¹⁷

عند قراءة هذه الأبيات، يتبين فيها "أثر المنطق واضحاً، وهذا أهم ما يفرق بينه وبين البحري، في صناعته إذ كان للمنطق تأثير واضح في صياغة شعره وتنسيق أفكاره"¹⁸ فالفلسفة الحياتية واضحة جلية؛ فابن الرومي اختلف اختلافاً يكاد يصل إلى النقيض من البحري لأنه كان من بين الشعراء المفكرين في العصر العباسي، شاعر متفرد تعكس ثقافته درجة النضج والشمول التي ميزت ثقافة عصره، فبرز عنده التصوير الرائع الذي امتزج فيه بين الشعر والفكر، الأمر الذي أسعفه لاستخدام ألفاظ المنطق كالقياس مثلاً

في قوله:

تَكَادُ تُعَوِّقُ الشُّعْرَ عَنْكَ عَوَائِقُ إِذَا قَاسَهُ يَوْمًا بِشُعْرِكَ قَاسُهُ¹⁹

وقوله:

لا يقيس قَائِسٌ بِكُمْ قُو مَا فليس المعدوم كالموجود²⁰

كما ورد في شعره لفظ القضية" والقضية من مصطلحات المناطقة يقول في قصيدته يفضل فيها النرجس عن الورد:

فصل، القضية أن هذا قائدٌ زهرَ الرِّياض وأنَّ هذا طاردٌ²¹

فابن الرومي كانت له طريقته الاستقصائية للمولد المخترع، لتتخذ أبياته في كثير من نماذجه شكل أقيسة دقيقة، كأنه رجل من رجال المنطق،

5.4. المتنبي (303هـ-354هـ):

تأثر المتنبي بالفلسفة ظاهر في شعره، وهي فلسفة تنم عن خبرة وتجربة وطول تفكير وعمق رؤية، أدرك قيمة الموهبة الشعرية التي يمتلكها والتي منحها، الله تعالى له، فتعهدا بالرعاية والصقل والاطلاع الواسع على الثقافة العربية من ناحية، وثقافات العالم المعاصر له من ناحية أخرى، كما أنه فتح عينه جيدا على واقعه وأحوال الملوك والحاشية، والناس من حوله، وتابع صعود الأمم وانحدارها، وتأمل نزاعات النفس وطموحها

واستطاع أن يستخلص منها القوانين التي تحكمها، وخرج من ذلك كله بتجربة شعرية مكثفة، بثَّها في ثنايا قصائده كحكمة مأثورة، تتناقلها الأجيال، فمن منظور آخر يرى المتنبي أن الإنسان الفاضل بفكره هو من يمثل حقيقة الوجود بعيدا عن كل جهالة وتخلف، يقول في هذا الصدد:

أفاضلُ النَّاسِ أغراضُ لذا الزَّمنِ يخلُّوا من الهَمِّ أخلاهم من الفِطنِ²²

فالمقصود من الهَمِّ هنا مجموع الإشكاليات والتساؤلات التي تطرح حول حقيقة الحياة، ومن هنا يمكننا القول بأن مقياس الإنسانية السامية في العصر العباسي يتجسد في خاصية المنطق والذي توغل في كل الفكر الأدبي ليكون دليلا ودربا يتبعه كل كاتب سواء كان من باب الشعر أم من باب النثر العلمي.

ونقل العرب الثقافة اليونانية – كما أسلفنا الذكر- المعتمدة على المنطق والأقيسة والأدلة واستخدام الشعراء مصطلحات فلسفية، كفكرة الجوهر والكل

والتعليل والتضاد، فاتجه بذلك الشعراء إلى استعمال المنطق والفلسفة في نظمهم، وأخضعوا تجربتهم الشعرية إلى ذلك.

قال المتنبي:

وَكُم مِّنْ عَائِبٍ قَوْلًا صَحِيحًا وَأَفَاتُهُ مَنِ الْقَهْمِ السَّقِيمِ

ولكن تأخذ الأذان منه على قدر القرائح والعلوم²³

فالقول العائب السقيم هو القول الذي يخلوه المنطق، وعليه فالشاعر هو المترجم الآلي لخلاصة هذه الثقافات وفوائد هذه الحكم ودلالاتها العميقة تكمن في إدراك المجهول، والغبي الضبابي والذي يصارع الفرد قصد فكِّ شفراته، يقول المتنبي:

عِشْ عَزِيزًا أَوْ مُتْ وَأَنْتَ كَرِيمٌ بَيْنَ طَعْنِ الْقَنَا وَخَفَقِ الْبُنُودِ³⁰

فالعزة والكرامة والعيش والموت، هي عبارة عن مقاييس أصبحت تصاغ، من فلسفة الوجود.

فهو يرفع قيمته ويمتلك مميزات عليا وخصائص منفردة وهو العصامي الذي بنى نفسه بنفسه، وبالتالي فإنه لا يعتمد على حسب أو نسب، ولا يتكئ على شرف قومه، بل إنه هو الذي يجعلهم يشرفون به.

لا بقومي شَرُفْتُ بل شَرُفُوا بِي وبنفسي فخرت لا بجدودي³¹

إن إرادة القوة عند المتنبي لا تكاد تختلف عما دعا إليه نيتشيه من ضرورة أن يكون صاحبها ذا همة عالية وروح طموح، وعمل دائم وجهد مستمر.

6.4. أبو العلاء المعري (363هـ-449هـ):

ها هو المعري يصف تأملاته الكونية بالحديث عن العقل والروح، البعث والنشور:

غير معجدي في ملتي واعتقادي نوحُ بالك ولا ترثم شادِ

وشبيه صوت النعي إذا قيسَ بصوت البشر في كل نادِ

أَبَكْتُ تَلُكُمُ الْحَمَامَةُ أَمْ غَنَّتْ عَلَى فَرَعِ غُصْنِهَا الْمَيَادِ؟²⁴

فهو يوضح أن الحياة في طرفيها: البداية والنهاية متشابهة، لا فرق بين مشهد الموت ومشهد الميلاد، فصِيحَةُ البشير بمولود يستقبل الحياة، لا تختلف عن صِيحَةِ النعْيِ براحل يودع الحياة، تماما كما يختلط في السمع صوت الحمامة فوق غصنها فلا ندري أهو غناء أم بكاء؟

ثم تعود إليه حيرته أمام قضية الموت والحياة، ويحاول أن يتعمق فيها، فيما انتهى إليه، وكأنه راجع نفسه فيه، فالبداية والنهاية متشابهتان ولكن هل الموت عند التأمل فناء؟ هل فناء الجسد عند الموت يعني فناء الحياة؟ إذن فأين الروح؟ وإلى أين المصير؟ يقول:

إِنَّ حُزْنَاً فِي سَاعَةِ الْمَوْتِ إِضْعَافُ سُرُورٍ فِي سَاعَةِ الْمِيلَادِ

خُلِقَ النَّاسُ لِلْبَقَاءِ، فَضَلَّتْ أُمَّةٌ يَحْسَبُونَهُمُ لِلنَّفَادِ

ضَجَّةُ الْمَوْتِ رُقْدَةٌ يَسْتَرِيحُ الْجِسْمُ فِيهَا، وَالْعَيْشُ مِثْلُ السُّهَادِ²⁵

بحث الفلاسفة في قضية الخير والشر بحثا صافيا في مؤلفاتهم، وتوسعوا في تعريف كل من الخير والشر، وتحديد مفهومهما والفرق بينهما، وتوصل فريق من العلماء أن النزعة العقلية كان لها أثرها في نظرة أبي العلاء إلى الخير، فالعقل عنده هو معيار كل معرفة ولا يكون الخير خيرا حقيقيا إلا إذا كان خاضعا لحكم العقل لهذا فإن: «مذهب أبي العلاء قريب من مذهب الرواقيين؛ لأنه قد مدح الجهد والمشقة ودعا إلى إتباع العقل وهجر الذات ونادى بالعدل والمساواة والرحمة، وهو قريب أيضا من مذهب شوبنهاور لأن الرحمة عنده هي الحب، لا بل هي مبدأ الإحسان والعطف على الإنسان والحيوان»²⁶ فقد أثبت وجود الخير في الدنيا، كما أثبت وجود الشر في مثل قوله:

خَيْرٌ وَشَرٌّ وَلَيْلٌ بَعْدَهُ وَضَحٌ وَالنَّاسُ فِي الدَّهْرِ مِثْلُ الدَّهْرِ قِسْمَانِ²⁷.

فله عدّة آراء فلسفية لمس فيها بعض العادات والتقاليد والأخلاق، والسياسة والتربية أو قل المجتمع في كلمة واحدة، ولمس فيها الدين والطبيعة وما وراء الطبيعة، فعُدَّ بحق شاعر الفلسفة، وفيلسوف الشعراء يقول:

قُلْتُمْ لَنَا: خَالِقُ حَكِيمٍ قُلْنَا: صَدَقْتُمْ، كَذَا نَقُولُ

زَعَمْتُمُوهُ بِلَا زَمَانٍ وَلَا مَكَانٍ، أَلَا فَقُولُوا

هَذَا كَلَامٌ لَهُ خَبِيٌّ مَعْنَاهُ لَيْسَتْ لَنَا عَقُولُ²⁸

فَتَهْكُمُهُ هُنَا لَا يَبْعَثُ عَلَى الْاسْتِهْزَاءِ لِمَجْرَدِ التَّفَكُّهِ، بَلْ إِلَى التَّفَكُّيرِ فِيمَا هُوَ مَعْقُولٌ
وغير معقول، وفي التمييز بين ما هو صحيح في نظره أو غير صحيح؛ فهو يؤمن بالحق
ويراه المرشد الحق، ويعتقد أن من اتبع عقله لن يضل، يقول:

كَذَبَ الظَّنُّ لَا إِمَامَ سِوَى الْعَقْلِ مُشِيرًا فِي صُبْحِهِ وَالْمَسَاءِ

فَإِذَا مَا أَطْعَمَتْهُ جَلَبَ الرَّحْمَةَ عِنْدَ الْمَسِيرِ وَالْإِزْسَاءِ²⁹

هكذا وقف المعري في مصاف كبار صانعي التراث العربي، وصار موضع اهتمام
المؤرخين والنقاد والدارسين، وأصبح ظاهرة يمتد تأثيرها إلى أوساط ثقافية متعددة، لا
تقتصر على الشعر فحسب، بل راحت تشمل الفكر والفلسفة والزهد والنقد الاجتماعي.

ومن يؤيده في ذلك من الشعراء المتنبي الذي نجد المنطق يتلخص في مفهوم
الحكمة وأغراضها ومسبباتها، حيث أن الشاعر حاول أن يقدم خلاصة تجاربه في الحياة
وفق مجموعة من الحجج الحكمية الواقعية، تجسّد هذا المفهوم، وتبيّن هذا المنطق.

يقول أبو العلاء المعري:

مَقِيمُ النَّصْلِ فِي طَرَفِي نَقِيضِي يَكُونُ تَبَائُنٌ مِنْهُ اشْتِكَالًا

تَبَيَّنَ فَوْقَهُ ضَحْضَاحُ مَاءٍ وَتُبْصِرُ فِيهِ لِلنَّارِ اشْتِعَالًا³²

ويقول أيضا:

وَالْكِبَرُ وَالْحَمْدُ ضِدَانِ، اتِّفَاقُهُمَا مِثْلُ اتِّفَاقِ فَتَاءِ السِّنِّ وَالْكِبَرِ³³

فقوله: في طرفي نقیض وضدان، إنما هو من ألفاظ المنطق وكذلك التباين
والاشتكال، فالشاعر أصبح حكيما وفيلسوبا تنطلق منه العبرة كأنه سيّد الحقيقة
والكشف..

وكان القرن الرابع الهجري (4هـ) قرناً ثرياً بالمذاهب الفكرية والدلالات الفلسفية، فهو عصر السنة والشيعية والقرامطة، والمعتزلة والمرجئة.

5. خاتمة:

نصل في نهاية هذا البحث إلى التأكيد على أن الأدب فن بالدرجة الأولى إذ أنه يتجه إلى العقل بالمعرفة والإفادة، وإلى العواطف بالتأثير على أن البعد العقلي ممتد الجذور في نشاط الفكر العربي بصورة بيانية واضحة بنزول القرآن الكريم، حيث دعا المسلمين إلى التدبر والتفكير الإنساني ومنه:

-إن الشعر الفلسفي جمع بين الوظيفة العلمية والغاية الفنية.

-هذه النمطية من الأشعار اتسمت بالغزارة المعرفية والعواطف للإفادة والتأثير.

-الحركة العقلية مست كل المجالات حين قيام الدولة العباسية، بما في ذلك الفكر والأدب، الذي جسد بوابة وفود جملة الثقافات الغربية.

-مصدر المنطق تمثل في القوانين الصورية والميتافيزيقية اليونانية والحكم الهندية.

-المنطق نفسه الحكمة عند العرب لأنها وجهات لتعريف واحد وهي خلاصة تجارب الحياة.

6. الهوامش:

¹ ابن منظور، لسان العرب، دار صادر بيروت، لبنان، 1999م، مادة (حكم).

² ياسين الأيوبي، (صفي الدين الحلي)، دار الكتب اللبناني، بيروت - لبنان، ط1، 1971م، ص 305.

³ لويس معلوف، المنجد، مطبعة معراج، طهران، إيران، ط2، 1367هـ مادة (حكمة).

⁴ ياسين الأيوبي، (صفي الدين الحلي)، دار الكتب اللبناني، بيروت، ط1، 1971 م ص 305.

⁵ المرجع السابق، ص 475.

⁶ محمد خفاجي، الحياة الأدبية في العصر العباسي، دار الوفاء لنديا الطباعة والنشر الإسكندرية، ط 1، 2004.

⁸ أبو نواس، الديوان، (د.ط)، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ت)، ص 7.

⁹ ينظر: دي بور، توماس جون، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي دار العلم، بيروت (د.ت)، ص 156.

- ¹⁰ -لويس شيخو، الروائع أبو العتاهية منتخبات شعرية، المطبعة الكاثوليكية بيروت، 1927، ص62.
- ¹¹ يوسف خليف، في الشعر العباسي، طبعة دار غرب، القاهرة، مصر (د.ت)، ص90.
- ¹² شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص239.
- ¹³ أبو تمام – الديوان، فسر ألفاظه اللغوية ووقف على طبعه: محي الدين الخياط، طبع بمناظرة والتزام محمد جمال، ص7.
- ¹⁴ المصدر نفسه، ص157.
- ¹⁵ المصدر نفسه، ص157.
- ¹⁶ ابن الرومي، الديوان، تحقيق: حسين نصار، دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة ط3، 2003، (ج2)، ص359.
- ¹⁷ ابن الرومي، الديوان، ص586.
- ¹⁸ شوقي ضيف، الفن ومذاهبه، ص205.
- ¹⁹ ابن الرومي، الديوان، ج3، ص1173.
- ²⁰ المصدر نفسه، ص615.
- ²¹ المصدر نفسه، ج2، ص643.
- ²² ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان 1983م، ص170.
- ²³ ديوان المتنبي، القدس للنشر والتوزيع، القاهرة، 2011، ص180.
- ³⁰ ديوان المتنبي، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت لبنان 1983م، ص21.
- ³¹ المصدر نفسه، ص21.
- ²⁴ أبو العلاء المعري، سقط الزند، دار بيروت – دار صادر، بيروت، 1957، ص7.
- ²⁵ المصدر السابق، ص8.
- ²⁶ خليل أبو ذياب، النزعة الفكرية في اللزوميات، هبة النيل العربية للنشر والتوزيع، 1995، ص330.
- ²⁷ أبو العلاء المعري، اللزوميات، مكتبة الخانجي، القاهرة، ص512.
- ²⁸ أبو العلاء المعري، اللزوميات، ص64.
- ²⁹ المصدر نفس، ص356.
- ³² المعري، سقط الزند، ص53.
- ³³ المصدر السابق، ص62.